

الرّصافي: بين تاريخ الأدب وتاريخ السياسة

تلم: إبراهيم الوائلي

– واعني دارس الرصافي – اما ان يطرح كثيراً من فصول هذا التاريخ ويستخلص تاريخاً سياسياً من شعره وإما ان يقبل هذا التاريخ على ما فيه من الاضطراب والتفكك والاعلاط والعواطف ثم يقارن بينه وبين شعر الشاعر، فاذا وجد اختلافاً كبيراً بين ما يدرس من التاريخ وبين ما يدرس من الشعر – وسيجد هذا الاختلاف – كان عليه ان يختار احدي اثنتين: إما عقلية المؤرخ العاطفي او ذهنية الناقد النزيه، الناقد السياسي والناقد الادبي على السواء، ومن ثم يستطيع ان يبدي رأيه في شعر الرصافي وسيكون صواب الرأي او خطأه موقوفاً على تلك العقلية التي يتحدث بها والنظرة التي يوجهها ويحدد بها طريقة الدراسة. ولهذا أقول: ان دراسة الرصافي من الجانب السياسي يجب ان تعتمد في اكثر مواضعها على شعره وفق مناهج البحث وألا يؤخذ من التاريخ إلا ما يوافقها ويوافق الحقائق الناصعة التي يقرها العقل. يقول بعض مؤرخي الرصافي إنه لم يكن سياسياً لانه لم يستقر على مبدأ واحد فما يكاد يتسم بميسم سياسي او يتصف بصفة سياسية حتى يتحركها او يتنكر لها ليعتق غيرها، وما يكاد يؤيد سياسياً من السياسيين حتى يثور عليه ويندد بسياسته وهذا هو شأن الشعراء العاطفيين. أما السياسة فانها مبدأ ثابت واسلوب واحد لا يجيد عنه صاحبه، وعقيدة لا يتزحزح عنها معتقدها مهما تقلبت الظروف والاحوال حتى يبدو له خطأ تلك العقيدة، ولم يكن الرصافي من هذا النوع، فهو أذاً يتحدث عن السياسة لإرضاء لعاطفته وإشباعاً لهواه وقد يكون الشاعر مضطرباً في هواه وعاطفته!

هذا ما يراه بعض من تصدى لدراسة الرصافي وهو قول لا يجوز إلا اذا نظرنا إلى السياسة من حيث مدلولها ومفهومها وكونها صفة تعتمد على اللف والمخاتلة ويتحكم فيها عقل المرء لا قلبه وعواطفه، والرصافي شاعر لا يتحدث الا عن قلبه وإحساسه ولا يعرف طريق اللف والمخاتلة.

اما اذا نظرنا إلى السياسة من زاوية الصراحة او انها الكسب مع الصراحة – كما يقولون – ومصدر خير ونصح لا مصدر شر

لقد أخذ الرصافي مكانته التي يستحقها في تاريخ الأدب الحديث واصبح موضوع كثير من الدراسات الأدبية في العراق وغيره، ومن حقه ان يأخذ مكانته ايضاً في تاريخ السياسة الحديثة بوصفه أحد كبار العاملين في حقلها والموجهين لها. أجل لقد أخذ الرصافي مكانته في تاريخ الأدب الحديث لانه وجد من يستطيع ان يسجل مظاهر الأدب تسجيلاً لا مواربة فيه ولا التواء ولأن الأدب لا يستطيع ان يفعل من تاريخه عنصراً هاماً كان له الأثر الكبير في تكوين المدرسة الشعرية المعاصرة وفي كشف الطريق التي سلكها الشعراء المعاصرون. ولكن تاريخ السياسة لم يستطع ان يجرب قلمه في الحديث عن الرصافي الذي كان داعياً وموجهاً وناثباً وصحافياً وقف جهاده وقلمه وتفكيره لخدمة امته ووطنه. ذلك لأن قلم هذا التاريخ لا يزال مهزوزاً مضطرباً يحتاج إلى قوة في العصب والدم ونضج في فهم الحقائق وتدوينها، شأنه في اكثر ادواره وعصوره، ومن ثم حذف اسم الرصافي من التاريخ المجرد، ومن الخير له ان يجذف من تاريخ قائم الصور والألوان ليقبى ذخيرة يرجع اليها مؤرخو الأدب الحديث كلما أرادوا الكتابة والبحث في موضوع الشعر. ولكن هل يستطيع مؤرخ الادب ان يستغني عن دراسة التاريخ العام، وهل يسلم نهج البحث في دراسة الشعر – والشعر السياسي منه – إذا لم يمزج بينه وبين دراسة المجتمع والحوادث التاريخية؟ إذا جاز لمؤرخ الأدب ان يسلك هذا الطريق الملتوي جاز له ان يغفل دراسة التاريخ الحديث حين يريد البحث في شعر الرصافي، وهذا عسر ما بعده عسر ومشقة ما فوقها مشقة، ذلك لأن شعر الرصافي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمجوات تاريخية كبرى وبتجمع واسع الآفاق.

ومن ثم نستطيع القول بان الذي تصدى لدراسة الرصافي من الوجهة السياسية على الأقل سيجد في طريقه كثيراً من العقبات اهمها هذا التاريخ السياسي المضطرب المشوه الذي لا يتفق اكثر ما فيه مع تجارب الرصافي وافكاره، بل لا يتفق مع الواقع لو جرّد من الاعلاط والعواطف المهزوزة، فهو إذاً

وخداع ورياء وان السياسي يجب ان يكون اميناً على مصلحة امته وبلاده، اذا نظرنا إلى ذلك كله استطعنا ان نحكم بان الرصافي كان سياسياً اصيلاً يمتاز بصدقه ومثاليته ولا يسلك سبيل الخاتلة والمواربة والدقل التي لا ترضي شاعراً مثله يجد في الصراحة خير ينبوع لشعره .

فهو إذاً بالقياس الى الروان الحكم التي عاصرها وبالقياس الى من رافقهم من السياسيين كان اصدق في التعبير عن نزعاته وافكاره ، ولم تكن نزعاته وافكاره سوى تلك التي سجلها في شعره وهي - في مجموعها - تمثل الى حد كبير امانى العرب ونزعاتهم آنذاك . ولم يختلف مع سياسي من السياسيين او مع فكرة يدين بها بعض الجماعات إلا لأنه يجد في جانبه حقاً او شبه حق ، وقد اوضحت مجاري الاحوال وتعاقب الاوضاع ان كثيراً من الافكار التي آمن بها الرصافي وعبر عنها بشعره كانت اقرب من غيرها الى اذهان العرب فيما بعد ، وان الرصافي لو اراد ان يكون سياسياً في مثل ما يتبادر الى الذهن من اساليب السياسة لكان مسلكه في الحياة غير ذلك المسلك الذي ادى به الى حالات مؤلمة من العيش .

ولكنه يعتقد انه لو سلك هذه السبيل لمسخت شاعريته مسخاً من حيث الافكار والمواضيع وادى به ذلك الى صراع عنيف بينه وبين نفسه وضميره ، ولكان يستحيل الى رجل من هؤلاء الذين يتحدث عنهم الناس بما لا يرضيهم ، وهذا ما لا يريد صاحبه رسالة في الحياة قوامها الصدق ، وضمير انطوى على عقيدة وايمان راسخين . وإذا كانت هناك نقطة اختلاف اخرى بين سياسة الرصافي وسياسة السياسيين فهي ان الشاعر كان سياسياً في نظرياته وافكاره وتجاربه وشعره ولم يتح له ان يعمل في حقل السياسة مطبقاً كما اتبح لغيره ، وحل هذه المشكلة التي صادفها الرصافي لم يكن عسيراً على من له الملم بمجوات التاريخ المعاصر من جانب ، وثبات الرصافي من جانب آخر .

وعلى منهج الموازنات نذكر اننا قد شهدنا في عصر الرصافي كثيراً من الشعراء ولكن قل ان وجدنا شاعراً من هؤلاء استطاع ان يتميز ببداً واحد او يحل بين اضلاعه قلباً كبيراً قوياً كالرصافي . ان بعض هؤلاء الشعراء بمن صعدوا على اكتاف التاريخ وتسلفوا قمه بقوة الدفع كان في كل ادواره متقلباً متبايناً في اساليب التقلب ، ذلك لان القلب

المضطرب كان يدفعه الى هذا اللون من الحياة، اما الرصافي فلم يكن من هذا النوع وحسبنا دليلاً على قوة قلبه وتماسك اعصابه انه كان يوقع باسمه الصريح في عصر الاستبداد الحميدي حتى ان بعض الصحف العربية في امريكا آنذاك كان يشك في ان يكون في العراق شاعر اسمه « معروف الرصافي » وانما هو اسم مستعار يتخفى صاحبه وراه ليعبر عن آرائه السياسية .

وهكذا كان الرصافي طوال حياته مفكراً فعبوراً ، وان الذي يدرس حياة الرصافي في اعماله وحياته في شعره يستطيع ان يربط بين الاثنتين ربطاً وثيقاً دون ان تصادفه مشاكل تدعو الى الشك والريب كما يقع له ذلك في دراسة كثير من الشعراء المعاصرين .

فالرصافي يوفق اشد التوفيق بين اعماله وبين قوله:

ولم استشر في الناس إلا تجاربي وهل يصدق الانسان إلا تجاربه
ويوفق اشد التوفيق بين اعماله وبين قوله :

هل الكفر إلا ان ترى الحق واضحاً

فتضرب للانظار من دونه ستراً؟

وان تبصر الأشياء بيضاً نواصعاً

فتظهرها للناس قانية حمراً!

إذا كان في عري الجسوم قباحة

فأحسن شيء في الحقيقة ان تعري

أحب الفتى ان يستقل بنفسه

فيصبح في افكاره مطلقاً حراً

وأكره منه ان يكون مقلداً

فيُحشر في الدنيا اسيراً مع الاسرى

ان استقلال الرصافي بفكره وتجاربه واعماله ومجاهرته بالتعبير عما يتخيله أو يعتقد دون مخاتلة والتواء جعل منه شخصيتين مختلفتين في نظر الباحثين والمؤرخين تبعاً لميولهم وعواطفهم وسوف يكون مصير هاتين الشخصيتين الى شخصية واحدة عندما يصبح التاريخ حراً لا يدون إلا الحقائق ولا يكتب غير الواقع الصحيح .

ابراهيم الوائلي

بغداد